

دور الفلسفة في بناء الثقة وتعزيز الهوية الوطنية

موعد استلام البحث: ١٧ / ١١ / ٢٠٢٤

موعد قبول البحث: ٨ / ١٢ / ٢٠٢٤

د. بهاء درويش (١)

الوعي بمفهوم الهوية الفردية، وعناصرها المكونة لها، ومفهوم الهوية المجتمعية وعناصرها إلى بناء الثقة وتعزيز الهوية الوطنية.

كلمات مفتاحية

الهوية الفردية - الهوية الوطنية - الإنسانية - الدين -

مدخل

حتى تحقق الأوطان مهمتها في التطور والتقدم نحو الحياة الكريمة، فإنها تحتاج بالضرورة إلى تعزيز وترسيخ الهوية الوطنية وخاصة متى كان أعضاء الوطن الواحد مختلفين عرقياً أو دينياً أو في المذهب. فمتى تواجد الفرد في وطن أو مجتمع، فإن وجوده في هذا الوطن أو هذا المجتمع يمثل جزءاً من هويته، وبالتالي لن يتحقق خيره إلا

ملخص

حتى تؤدي الأوطان مهمتها في التطور والتقدم والحياة الكريمة، لا بد من التعاون والتساند بين أبنائها وألا يرى أي عضو نفسه إلا كعضو في هذه المنظومة، لا ينحصر هدفه في مصلحته الشخصية ولكن هدفه هو الخير العام. في تحقق الخير العام تحقق لمصلحته، بينما في التمرکز حول الذات والبحث عن المصلحة الخاصة ضرر بالنسق الذي ينتمي إليه فلا تتحقق مصلحته العامة.

لا تقدم الفلسفة حلولاً لمجتمعات بعينها، ولكنها تبحث موضوعاتها كموضوعات إنسانية يهتم الجميع. يلتقط المفكر هذه الملكة النظرية الفلسفية فيستفيد منها في التطبيق على مجتمعه أو مؤسسته. فالمفكر الفيلسوف هو من يمكنه توظيف فكره الفلسفي في حل قضايا مجتمعه.

لما كانت مهمة الفلسفة توضيح المفاهيم والعمل على غرسها ونشرها بين الناس، سنحاول هنا توضيح معاني "الهوية الفردية"، و"الهوية الوطنية" وعناصرهما و"تعزيز الثقة" توضيحاً وتنظيراً فلسفياً يخدم في بيان كيف يؤدي نشر

والعمل على غرسها ونشرها بين الناس، فإنه تطبيقاً على هذا الفهم للفلسفة نرى أن مهمة الفلسفة لموضوعنا اليوم تكمن في توضيح معاني "الهوية الفردية"، و « الهوية الوطنية» و « تعزيز الثقة» توضيحاً وتنظيراً فلسفياً نشرها للوعي بها وبأهميتها. وفي العمل على ترسيخ الثقافة بأهميتها يكمن دور الفلسفة الذي يحتاج بالضرورة بعد ذلك إلى صناع قرار يدفعون بهذا الوعي وهذه الثقافة إلى حيز التطبيق.

تاريخياً

عرفت الحضارات القديمة مثل حضارات نهر النيل في مصر وحضارة نهري دجلة والفرات في العراق مفهوم الدولة من حيث أنها الكيان السياسي الذي ينتظم فيه أفراد المجتمع، أو الوحدة التي تجمع أفراد المجتمع في نسق واحد، فقد عرفت مصر مفهوم الدولة الموحدة حوالي ٣٢٠٠ ق.م. كذلك عرفت العراق أيام سرجون الأول أو الأكبر الذي وحد العراق أو نقلها من نظام الإمارات أو الدويلات إلى وحدة إقليمية ضخمة (٢٣٧٠ ق م - ٢٣١٥)^(١) وذلك قبل أن تعرفه بلاد اليونان في العصر القديم. ولما كانت الدولة هي النسق أو الكيان السياسي الذي يجمع أفراد المجتمع تحت رقعة جغرافية معينة الآن، فنحن نحتاج لمعرفة كيف يمكن للدول أن تحقق تقدمها وتطورها رغم بعض الاختلافات التي قد توجد بين أعضائها ودور الهوية الفردية والمجتمعية في تحقيق هذا التقدم والتطور.

بتحقق خير المجموع، وفي تحقيق الخير العام تحقق لخيرها الخاص. أما التمرکز حول الذات والبحث عن المصلحة الخاصة لن ينتج عنه سوى ضرر بالنسق العام أي بالمجتمع أو الدولة وبالتالي ضرر بمصلحته الشخصية.

لتفصيل هذا الأمر نحتاج بالضرورة للفلسفة، إذ لما كانت مهمة الفلسفة الأساسية توضيح المفاهيم، كان في توضيح مفاهيم «الهوية الفردية»، «الهوية المجتمعية أو الوطنية»، «تعزيز الثقة» ونشر الوعي بها توضيحاً لكيفية تعزيز الهوية الوطنية التي تقود المجتمع إلى تحقيق التطور والتقدم الذي يؤدي به إلى تحقيق الحياة الكريمة التي ينشدها أفرادها.

بين الفلسفة والفكر

إلا أن هذا لا يعني أن الفلسفة تقدم حلولاً جاهزة. لا تقدم الفلسفة حلولاً لمجتمعات بعينها، ولكنها تبحث الموضوعات الإنسانية التي تم البشرية بشكل عام كموضوعات إنسانية تم الجميع دون تحديد بمجتمع بعينه. يلتقط المفكر هذه الجزئية فيستفيد منها في التطبيق على مجتمعه أو مؤسسته أو وطنه. فالمفكر الفيلسوف هو من يمكنه توظيف فكره الفلسفي العام في اقتراح حلول لقضايا مجتمعه بشكل خاص، ثم يحتاج بعد ذلك إلى صناع قرار ينقلون هذا التنظير أو التوظيف إلى حيز التنفيذ.

فإذا كانت مهمة الفلسفة توضيح المفاهيم

مفهوم الهوية الفردية

الهوية الفردية - كما نظرت لها في موضع سابق^(٣) - هي الخصائص الجوهرية المعينة التي تحدد شخص ما وتميزه عن غيره أصحاب الخصائص الجوهرية الأخرى وهي تلك التي يترتب عليها التزامات ثقافية معينة. وفقاً لهذا المعنى، أرى أن الهوية تتحدد - بشكل أساسي - بالعناصر الجوهرية الأربعة التالية: "الإنسانية"، "العرق"، "الدين بطوائفه ومذاهبه" في المجتمعات التي يشكل الدين خاصية جوهرية لأفراده، ثم «الوطن». لا يمكن اختزال أو تهميش أي عنصر من هذه العناصر الأربعة أو رده لعنصر آخر للأسباب التي سأحاول بيانها. فكل عنصر - أو خاصية من هذه الخصائص - يمثل جزءاً من الهوية، واختزاله أو إلغاؤه يلغي أو يهشم إلتزامات ضرورية لولا هذه الخاصية ما كان ليكون لها داع أو ضرورة.

سوف نشرح الهوية الفردية تطبيقاً على عالمنا العربي. فإذا ما بدأت بالخاصية الأولى، فقد يعتقد البعض أن خاصية أني «بشر» أو «إنسان» مسألة مفروغ منها. ليست في حاجة لذكرها. ولا تشكل خاصية من خصائص الهوية. ولكنني على العكس أراها مهمة ومن الضروري بيانها. ما أعنيه بأني «بشر» لا يعني الصفات البيولوجية التي يتصف بها بنو آدم ويختلفون بها عن بقية الكائنات الحية أو غير الحية، ولكن أعني بها الخصائص الإنسانية الأخلاقية التي تُفرض عليّ من حيث أني إنسان عليه إلتزامات أخلاقية تجاه أخوتي في البشرية

وإلتزامات أخلاقية تجاه الكائنات الأخرى الحية وغير الحية.

يفرض عنصر "الإنسانية" عليّ - مثلاً - أن أكون "عادلاً" مع سائر أخوتي في البشرية الحاليين وأبناء الأجيال القادمة في الأمور التي تظهرنا ككائنات أخلاقية - أي في سلوكنا الأخلاقي تجاه بعضنا البعض وتجاه الكائنات الأخرى، وكذا في الأمور التي تهمنا جميعاً كبشر - أي في حقوقنا وواجباتنا الطبيعية تجاه بعضنا البعض من حيث أننا بشر. يمكننا أن نقدم أمثلة توضح كيف يجب عليّ أن أسلك تجاه سائر بني البشر مسلماً إنسانياً بغض النظر عن خصائص الهوية الأخرى التي أتصف بها وأختلف بها مع غيري. لنبدأ بأقل الأمثلة إمكانية في الاختلاف بشأنها: لا شك أنك إذا ما رأيت طفلاً يبيح عن شربة ماء أو جوعان، فإنك ستقدم له الماء والأكل بغض النظر عن ديانته أو قوميته. ولكن ماذا بالنسبة للكبار، هل ستقدم يد المساعدة له قبل أن تسأله عن ديانته أو قوميته؟ أم ستربط أبسط أشكال المساعدة الإنسانية بقومية أو ديانة من تقدم له المساعدة؟ إذا سلكت المسلك الأول، فأنت تمارس هويتك الإنسانية - وهو ما يجب أن تفعل - . أما إذا تحكمت عصبيتك القومية أو الدينية أو الطائفية في تقديم أبسط أشكال المساعدة، فأنت لا تسلك مسلماً إنسانياً. يظهر هذا الفارق بشكل جلي أثناء الحروب وفي مسلك كل طرف من أبناء الطرف المعادي. فإذا ما قتلت بريئاً لا يشارك في الحرب، طفلاً أو شيخاً كبيراً أو امرأة لا تشارك في الحرب، فهذه تصرفات تتنافى

هذا يعني أن هويتي الإنسانية تفرض عليّ ألا أظلم غيري بغض النظر عن جنسه أو سنه أو ديانته أو قوميته وأن أوفر له - في حدود قدرتي - أو على أقل تقدير أن أعترف له بالحق في - الغذاء والماء وسائر متطلبات الحياة الكريمة. كذلك يجب عليّ أن أوفر له - أو على أقل تقدير أن أعترف له بالحق في - كل متطلبات الرعاية الصحية. فالطعام والشراب ومتطلبات الرعاية الصحية لا يجب أن تكون من الأمور التي يتنافس عليها بنو البشر، بل من الأمور التي يجب أن يتقاسمها - وبرضا- بنو البشر. يجب على هويتي الإنسانية بالمثل ألا تسبني العدالة تجاه الأجيال القادمة فأتصرف تجاه البيئة على النحو الذي يبناه من أجل البيئة ومن أجل أبناء البشر من الأجيال المستقبلية.

هذه الأخوة البشرية لا تتناقض مع كوني مختلفاً بالضرورة مع أبناء جنسي البشري من غير العرب من حيث أنني «عربي يسكن المنطقة العربية» له هموم واهتمامات، وماضٍ وطموحات تختلف عن أبناء جنسي البشري من غير العرب، فالعربي عانى من استعمار مشترك قديماً وحديثاً وظروفاً اقتصادية واجتماعية وظلماً وقهراً سياسياً داخلياً وخارجياً اشترك فيها مع سائر بني العرب. لقد ربط الموقع الجغرافي الممتد من دولة المغرب غرباً إلى مصر والخليج العربي شرقاً ومن الشام والعراق شمالاً إلى السودان وموريتانيا جنوباً، ثم التاريخ واللغة العربية والدين سائر بني العرب بروابط وقواسم مشتركة ثقافية واجتماعية وسياسية جعلت

مع الإنسانية. أما إذا لم تقتل الأبرياء، الأطفال، النساء أو الشيوخ الذين ينتمون للعدو، فأنت تمارس هويتك الإنسانية على النحو السليم.

أضف إلى ذلك أن للبشر حقوقاً طبيعية ممثلة في الحق في الحياة بكرامة، في الاستمتاع أثناء حياتهم بالصحة، وحقهم في التعليم. هذه الحقوق ترتب التزامات أخلاقية على كل إنسان. فلنكسح يحيا الإنسان حياة ذات كرامة يجب ألا يتعرض لأي شكل من أشكال الظلم أو العدوان، وأن يشترك مع كل بني البشر في توفير الغذاء والماء لكل بني البشر. كذلك فإن حق كل إنسان الاستمتاع بحياة صحية يرتب على كل إنسان واجب توفير كل متطلبات الرعاية الصحية لكل إنسان.

للأجيال المستقبلية أيضاً الحق في التفكير فيها- أي أن نفكر في مستقبلها- من منطلق العدالة، من هنا كان مبدأ العدالة بين الأجيال يرتب عليّ التزاماً أخلاقياً أن أراعي وأحافظ على البيئة لسببين: من أجل الحفاظ عليها من أجل الأجيال المستقبلية، إذ تفرض عليّ العدالة أن يرث أبناء الأجيال المستقبلية الأرض بالتنوع البيولوجي نفسه والنقاء نفسه الذي ورثناه عليها. ومن ناحية أخرى فإن استغلالنا في الأرض لا يعني الإسراف في استخدام الموارد الطبيعية ولكن يعني أن نحافظ عليها وأن نستخدمها ونستفيد منها إستفادة راشدة غير مدمرة. ففهمنا لهوية البيئة وطبيعتها- بأن التنوع البيولوجي ضروري مثلاً وأن سائر الكائنات في حاجة لبعضها البعض - يلزماننا بالمحافظة عليها.

والبابلية. تتفق كلتا القصتين في ملاحظتهما كما جاءت في ملحمة جلجامش، وهو ما تم تفسيره بأنه عقاب من الآله بسبب آثام الناس وخطاياهم^(٩).

أما الحضارة السومرية فعلى الرغم من الاختلاف حول جنس وموطن السومريين، فإن الحفريات الأثرية في المدن السومرية أثبتت أنه كان هناك سومريون وأكاداد ومارسوا أنظمة سياسية وأعرافاً وعادات اجتماعية متشابهة، وشكلوا جزءاً من حضارة واحدة عرفت بالحضارة السومرية نشأت وازدهرت في جنوب العراق. كما كان لهم معتقدات دينية خاصة بهم^(١٠).

كان الإنسان في العهد السومري يؤمن أن الإنسان خلق لخدمة الآلهة، ومن ثم فقد قامت جماعات من البشر على الخدمة والعمل في معبد الإله الرئيسي لحكومة المدينة وفي حقوله يشرف عليهم الرئيس الإداري للمعبد، وأن الملوك تختار من قبل الآلهة لأن الآلهة هي التي تحكم البشر^(١١). كذلك أرجعوا زوال دولتهم أور إلى غضب الآلهة.

كذلك انتقل الساميون إلى دجلة والفرات من شبه الجزيرة العربية في موجات متتابعة، كونوا لأنفسهم مدناً لكل منها أمير يحكمها وإله يحميها ومعبد تقام فيه الطقوس^(١٢).

وعندما جاء البابليون وأنشأوا مدينة بابل، اهتموا بشكل خاص ببناء المعابد. كان همورابي أعظم ملوك هذه الأسرة أسرة بابل الأولى وكان يشرف بنفسه على رجال الدين، وجعل للعاصمة

فإذا بدأنا من عصور ما قبل التاريخ في شمال العراق نجد عبادة الشمس التي كان الناس يقدسونها على هيئة معبودة وذلك بدءاً من حضارة جرمو التي يؤرخ لها أنها كانت في الفترة بين ٦٠٠٠، ٧٠٠٠ ق م^(٤). أما حضارة تل حسوثة التي تنسب إلى قرية صغيرة في العصر الحجري الحديث فقد تركت لنا تماثيل لآلهة الأمومة^(٥)، كما كشفت الحفريات عن حضارة تل حلف - التي شغلت الفترة منذ أواخر القرن السادس ق م إلى أواخر الألفية الخامسة ق م - عن مبان عامة كانت بمثابة معابد دينية^(٦). كذلك أظهرت نتائج الحفريات مبان قديمة تمثل المعبد القديم في العراق قبل أيام حضارة العبيد. أما حضارة العبيد التي كانت أول حضارة في تاريخ العراق القديم تنتشر في الشمال والجنوب فقد كشفت الحفريات عن أنه في أواخر هذه الحضارة كانوا يذنون مع الموتى بعض الأواني الفخارية التي تتصل بالطعام والشراب كالأطباق والفناجين مما يوحي بأنهم كانوا يؤمنون بالعالم الآخر^(٧). وفي حضارة الوركاء وخاصة في مرحلتها الثانية - التي تنسب إلى الوركاء شرق الفرات - عرفت البشرية لأول مرة الكتابة، وتميزت بالمعابد الضخمة التي أقيمت فوق مساطب صناعية من عدة طبقات تمجيداً للمعبود. أما في حضارة جمدة نصر فقد أقام أصحابها المعبد الأبيض لمعبودهم أنو إله الشمس^(٨).

يبدأ العصر التاريخي في العراق بحادث الطوفان الضخم الذي وصلنا في المصادر السومرية

عرب العراق وبعض القبائل العربية في الجزيرة العربية. أما لغتهم الآرامية فقد أصبحت بعد انتشار المسيحية اللغة التي يستعملها رجال الدين في كنائسهم وانتشرت بين القبائل العربية المنتصرة باعتبارها لغة رجال الكنيسة يرتلون بها صلواتهم وبها يكتبون^(١٦). ثم انتشر الفرس في أنحاء بعد أن خضع للحكم الساساني وأصبحوا ملاكاً وأرباب أقطاعات بحكم سيادة دولتهم. كانت ديانتهم هي الديانة المجوسية ولم يجبروا أحداً على اعتناقها لعددهم هذه الديانة خاصة بهم فلا يهتم دخول أحد فيها. أما لغتهم فقد انتشرت بين سكان العراق من عرب ونبط لكونها لغة الدولة الحاكمة فكان كثير من عرب الحيرة يعرفونها إلى جانب العربية فقاموا بدور الترجمة بين العرب والفرس أثناء الفتح الإسلامي. أثر وجودهم على العراق بأن اصطبغ بالصبغة الفارسية من تقاليد وثقافة ونظم وعندما دالت دولتهم وزال سلطانهم بعد أن اندحروا أمام المسلمين انتقل من بقى منهم من ديانتهم القديمة إلى الديانة الإسلامية وتركوا لغتهم ليتكلموا لغة القرآن. أما العرب فكان لقرب العراق من شبه الجزيرة العربية أن جذب العراق إليه موجات سامية عديدة في أزمان مختلفة من التاريخ كما نرح إليه عدد من القبائل العربية قبل الفتح الإسلامي، فلما كان الفتح الإسلامي كان الشق الغربي لنهر الفرات أكثر سكانه من العرب منهم المستقر في القرى ومنهم من ظل يعيش عيشة البداوة يتنقل من مكان لآخر. واعتنق أغلب العرب الموجودين في العراق الديانة المسيحية.

بابل رباً هو الأسمى بين الآلهة، يتناسب وعظمة الامبراطورية التي أصبح مركزها بابل^(١٣).

كذلك سكنالأشوريون الأرض على جانبي نهر دجلة. هذا الاسم كان يعني المدينة التي تحمل هذا الاسم والمعبود الذي سيعبد هناك، وظلت هذه التسمية حتى القرون الأخيرة من الألف الأولى ق م. وكانوا ينتمون إلى الأصول نفسها التي تفرع عنها الأقسام الأكديّة والبابليّة والعربيّة. اتصفت معتقداتهم الدينيّة بالصفات نفسها التي اتصفت بها مثيلاتها عند بقية سكان العراق القديم^(١٤). ولم تهمل القوانين الأشورية جانب المعبودات، فقضت على من تثبت عليه البينة بضره أربعين عصا^(١٥).

في عام ٥٣٩ ق م سقطت بابل في يد الفرس وظل الحكم الفارسي حتى جاء الإسلام فحرر الأرض والقوم والعقول.

فيإذا ما وصلنا إلى العراق في العصر الأموي، يمكننا تلخيص من كانوا يسكنون العراق قبل الفتح الإسلامي بأنهم عناصر متعددة أبرزها النبط، الفرس والعرب مع وجود عناصر أخرى كالأكراد واليهود والأجباش. كان سكان العراق القدامى من الكلدان السريان وأسماهم العرب النبط، كان يطلق عليهم الآراميين. كان لهم دولة قضى عليها الفرس وخضع العراق للحكم الفارسي. اعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب النسطوري الذي كان في حماية الدولة الفارسية وقد ساعد اعتناقهم النصرانية على انتشارها بين

الهوية الوطنية

واقع الأمر كما أسلفنا أننا نعيش في مجتمعات أو بالأحرى كيانات سياسية يشترك فيها أبناء وطن واحد في رقعة جغرافية محددة. هؤلاء الأفراد قد لا تتفق خصائصهم الجوهرية المشكلة لهوية كل منهم الفردية. كأن يتكون المجتمع من أفراد تختلف في العرق (عرب، أكراد) أو في الدين (مسلم، مسيحي) أو في المذهب (سنة وشيعة). كيف يمكن لهؤلاء الأفراد التعايش المشترك على نحو يحقق لمجتمعهم الأهداف التي يصبو إليها بأمن وأمان؟

يتطلب هذا الأمر وعي كل منهم - بالإضافة إلى عناصر هويته الفردية - بما يسمى الهوية المجتمعية أو الهوية الوطنية. إذا كانت الهوية الفردية هي العناصر الجوهرية التي تحدد شخص ما وتميزه عن غيره وهو ما حاولنا بيانه، مثل الانسانية، والعرق، والدين، الوطن، فإن الهوية الوطنية من وجهة نظري تكمن ليس في البحث عن المشترك بين أعضاء الوطن الواحد في خصائصهم المشكلة للهوية الفردية، ولكن عن مشتركات أخرى رغم إمكانية اختلافاتهم في خصائصهم الجوهرية المشكلة للهوية الفردية تجعل إمكانية تعايشهم المشترك ممكناً، أهمها تحديد الأهداف المشتركة وسبل تحقيقها بما يحقق التقدم والحياة الآمنة وكذا تحديد القيم التي تحكم حياتهم. ولكن دعنا نبدأ بالتساؤل: لماذا يحتاج كل فرد في المجتمع الوعي بهويته الفردية؟ قد يعتقد البعض أنه طالما أننا نحيا دولة واحدة، فلا حاجة لإبراز أية هوية فردية. يجب أن تتقدم الهوية المجتمعية على الهوية الفردية.

تعرضت هذه العناصر الثلاثة لعملية الفتح الاسلامي الذي حمل اللغة العربية والدين الاسلامي فلم يكدم أكثر من مائة عام حتى أضحى الدين الاسلامي دين الأغلبية وسادت اللغة العربية غيرها من اللغات^(١٧). ثم تنتهي الدولة الأموية لتصبح بغداد عاصمة للدولة العباسية.

وإذا أردنا مثالا من تاريخ العراق في العصر الحديث ليدلل على أن الدين كان دائماً عنصراً أساسياً من عناصر الهوية، فلنا أن نعرض فقط موقف رجال الدين من الاحتلال الانجليزي ١٩١٤ - ١٩١٨. فما إن انتشرت أخبار الاحتلال البريطاني لبعض مدن العراق، حتى هرعت الدولة العثمانية إلى الاستنجد بعلماء الدين - معرفتهم تأثير علماء الدين أو الدين نفسه على نفوس الناس - بأن أرسلت برقية في التاسع من تشرين الثاني ١٩١٤ من البصرة إلى علماء الدين في النجف الأشرف ومختلف المدن العراقية جاء فيها أن ثغر البصرة يحيط به الكفار وأننا نخشى على باقي بلاد الإسلام مناشدين علماء الدين أن يأمروا العشائر أن تدافع عن البلاد. وبالفعل وقفت العشائر مع قوات الدولة العثمانية قناعة منهم أنهم بذلك ينصرون الإسلام ويقفون ضد بلاد الكفر، وهو ما أدى إلى انتصارهم في بعض المعارك وتكبيدهم البريطانيين خسائر كثيرة رغم انتصار الانجليز في أغلب المواقع^(١٨).

المجتمع وبالتالي تعوق هذه الأهداف بعضها بعضاً مما يؤدي إلى الإضرار بالمجتمع. أضف إلى ذلك أن تمثيل كل طوائف المجتمع في تحديد أهداف المجتمع يقوي لدى كل منهم الشعور بالانتماء للمجتمع ومن ثم يمارس تحقيق الأهداف بإيجابية انطلاقاً من إحساسه بالانتماء. كذلك فإن شعوره بتقدير المجتمع له من شأنه أن يقوي اهتمامه بالآخر ومراعاته له انطلاقاً من فهم حق الآخر الأخلاقي بالتواجد والمشاركة والإقرار بذلك وانطلاقاً من إدراكه نتائج التماسك والتعاقد.

أن يعي كل عضو في الوطن أنه إذا لم تكن أعضاء المجتمع تتفق في خصائص هويتها الفردية فإنه يجب قبول الاختلافات التي قد توجد بين أفراد المجتمع كأعضاء. من هنا يمكن القول إنه إذا كانت كثير من المشاريع الفكرية العربية التي وضعها في القرن العشرين مفكرون عرب كثر لم تنجح أو لم تلق الاهتمام الذي تستحقه ربما لتجاهل هذه المشاريع الاختلافات الضرورية بيننا كعرب ننتمي لبلدان مختلفة، فكذلك على مشاريع التنمية في الوطن الواحد أن تراعي الاختلافات بين أطراف المجتمع أو الخصوصيات الدينية أو العرقية.

ربما كان عدم مراعاة الخصوصية القومية لكل فرد من أفراد الأمة العربية أو الخصوصية الثقافية لغير العرب القاطنين في المنطقة نفسها في معظم المشاريع الفكرية أو السياسية هو ما أدى إلى فشلها. ربما كان فشل مشروع الوحدة بين سوريا ومصر ١٩٥٨، واتحاد الجمهوريات

حاجة كل مواطن لفهم عناصر هويته الفردية تخدم في أنها ترسم لكل فرد صورة عن ذاته لذاته. تعرفه من هو، فهو يتعامل من منطلق وعي بذاته وبالهوية الفردية للآخرين. يساعده فهمه لذاته على المشاركة بوعي في تحديد أهداف المجتمع انطلاقاً من وعي بما إذا كانت هذه الأهداف تأتي استجابة لمتطلباته ومتطلبات الآخرين أم لا.

هنا فإن تحقق الهوية المجتمعية يتطلب - إلى جانب الوعي بالهوية الفردية توفر الشروط الآتية:

أن يعي كل فرد أنه عضو في مجتمع ما هدفه الأساسي الخير العام للجميع ومن ثم فعليه المشاركة الإيجابية في تحديد أهداف المجتمع وفي الخطوات التي تؤدي إلى تحقيقها والتعاون في ذلك الأمر مع بقية أفراد المجتمع.

أن يفهم كل عضو في الوطن أن كل أعضاء المجتمع أعضاء جمعهم القدر في تاريخ واحد وجغرافيا واحدة، وبالتالي فإن مشاركة الجميع في تحديد أهداف المجتمع وتحقيقها حق أخلاقي لكل فرد من ناحية، ويؤدي إلى منفعة المجتمع ككل من ناحية أخرى. ذلك أن عدم تمثيل إحدى طوائف المجتمع في تحديد أهداف المجتمع لا يضمن أن تكون الأهداف المحددة معبرة بالفعل عما تصبو إليه الطائفة أو الطوائف المستعدة. فمن ناحية يعد هذا ظلماً لها ومن ناحية تعد الأهداف ناقصة وغير ممثلة بالفعل لأهداف المجتمع بكل أطرافه. ثم إن السماح لأفراد مجموعة بتحديد أهدافها والعمل على تنفيذها بشكل منفرد عن بقية المجتمع قد يؤدي إلى تعارض أهداف المجموعة مع أهداف بقية أفراد

مباشرة أسوة بما يفعله المحذون وما كان يفعله القدماء. على هذا النحو يتعود الفكر العربي - وفقاً له- التعامل مباشرة مع الحاضر وعلى هذا النحو يقترب ضحى التنوير ويتسارع بتجاوز موضوع إعادة بناء الموروث القديم أو أخذ موقف من الوافد الجديد. ومن لبنان يهتم بالمثل حسين مروة ببحث قضية الفكر (العربي) كيف نعرفه، والقصة (العربية) خلال التاريخ. فلم يهتم أي مفكر من هؤلاء المفكرين بالخصوصية القطرية أو القومية في حديثهم عن التراث أو الفكر العربي.

قيم الهوية الوطنية

يجب على أفراد الوطن الواحد مراعاة قيم واحدة توجه حياتهم وهي قيم (الاحترام، التعايش المشترك، قبول الاختلاف).

لما كان أعضاء المجتمع أو الوطن يتصفون بالإنسانية، فإن هذه الصفة وحدها ترتب عليهم الالتزام الأخلاقي بضرورة احترام كل منهم الآخر. فلقد اجتمعت الأديان السماوية والفلسفات على أن بالإنسان كرامة يجب احترامها. وعى الإنسان بذاته وقدرته على إتخاذ قراراته بحرية ارتبطت في الفلسفة منذ أيام أرسطو والرواقيين باتصاف الإنسان أن لديه كرامة. كذلك ذهبت الأديان السماوية الثلاثة على ضرورة احترام كرامة الإنسان. فالكرامة الإنسانية تصور أساسي في الديانتين اليهودية والمسيحية لسببين الأول أن الله هو خالق الإنسان وثانياً لأنه خلقه على صورته. ومن ثم فحياته - جسداً وروحاً - اكتسبت قداسة

العربية بين مصر وليبيا وسوريا ١٩٧١، وغيرهما من محاولات الوحدة العربية بين قطرين عربيين أو أكثر يعود لمحاولة الإذابة غير الطبيعية للدول والشعوب في كيان واحد. وربما كان إلغاء المشاريع الفكرية العربية للخصوصيات القومية لكل بلد عربي أو عدم إفساح مكان لها هي ما أفضل هذه المشاريع. فالمشاريع في مجملها تتحدث عن كيفية النهوض "العربي" ولا تتحدث على الإطلاق عن أية خصوصية قومية. فمشروع محمد عابد الجابري يتركز في نقد العقل (العربي) وتكوين العقل (العربي)، والخطاب (العربي) المعاصر وإشكاليات الفكر (العربي) المعاصر. أي أن التركيز جاء على خاصية العروبة فقط. كذلك انشغل طيب تيزيني مثل كثيرين غيره بقضية التراث (العربي) وبأي منهجية يجب بحثه وانتهى إلى ضرورة بحثه في ضوء منهجية تراثية ناجعة علمياً وذات أفق اجتماعي إنساني تقدمي يراعي الحركة الذاتية الداخلية للتراث في سياقها الحقيقي بعيداً عن مواقف القسر. هذه الدراسة للتراث العربي الفكري يجعلها مقدمة ضرورية لاقتراح نظرية تراثية خاصة به. أما زكي نجيب محمود فيرى أن تجديد الفكر (العربي) يكون في الجمع بين الأصالة والمعاصرة. يضع حسن حنفي مشروعه تحت عنوان «التراث والتجديد» واصفاً إياه بأنه «ضحى التنوير»، مقسماً له إلى نقد التراث العربي القديم ونقد التراث الغربي الحديث ثم أخيراً الموقف من الواقع أي التنظير المباشر للواقع والتفاعل مع تحدياته مباشرة دون توسط نص من القدماء أو نص من المحذون وذلك بإبداع النصوص الجديدة التي تتعامل مع الحاضر

بينما العوامل البيئية مسؤولة عن القدرات الحركية والجسدية. والحوار مازال دائراً لمعرفة تفاصيل أكثر ولكن ما لم يختلف عليه أحد هو أن كلاً من الوراثة والبيئة مسؤولتان عن تطور القدرات الذهنية في الإنسان. يختلف الناس أيضاً اختلافاً عقائدياً. هناك المتمون للأديان الإبراهيمية أو الشرائع السواوية - وهي اليهودية والمسيحية والاسلام-، وهناك المؤمنون بأديان أخرى مثل الهندوسية والتاوية، ثم هناك الملحدون الذين لا يؤمنون بأي إله.. الاختلاف كما قلنا مسألة طبيعية يجب أن يقبلها الناس على أنها سنة وطبيعة الحياة والبشر. الاختلاف العقدي يختلف عن غيره من أوجه الاختلافات في أن العقيدة من الأمور التي يصعب تغييرها لدى الإنسان لأنها- في الغالب- لم تنشأ ولم تأسس عن قناعة عقلية. من الممكن تغيير ما تأسس عن قناعة عقلية من خلال النقاش. أما العقيدة فهي ولاء غير مبرر لدى عامة الناس. لا يمكن للغالبية تبريرها بحكم الثقافة ومستوى التفكير وبحكم طبيعة التعامل مع أمور العقيدة. فما زالت هناك على سبيل المثال قبائل بدائية تمارس طقوس وعادات لا يمكن للكثيرين قبولها عقلياً أو فهم مغزاها ولا يمكن للمتمين هذه القبائل فهم أنفسهم تبريرها أو شرح مبرر الايمان بها. كذلك لا يشغل المؤمنون بالأديان السواوية المختلفة أنفسهم بإيجاد تفسير أو تبرير لكل أمر إلهي يندرج ضمن أوامر الدين الذي يتسبون إليه.

إن فهم هذه الظاهرة - ظاهرة الاختلاف- يجب أن يكون مانعاً لظهور أي شكل من أشكال التعصب أو التطرف أو النزاع. ليس هذا فقط، بل

لا يصح لأحد إهانتها أو سلبها. أما في الإسلام، فقد اكتسبت الكرامة الإنسانية معناها وبالتالي اكتسب الإنسان قداسته من أن الله خلق الإنسان خليفته على الأرض، فميزه بذلك عن سائر خلقه.

القيمة الأخرى التي لا بد أن تحكم العلاقة بين أبناء الوطن الواحد هي قبول الاختلاف. فالاختلاف ظاهرة طبيعية يجب قبوله. الاختلاف بين الكائنات (إنسان - حيوان - نبات - جماد) اختلاف في الطبيعة، والتنوع البيولوجي ضرورة لاستمرار الحياة البيولوجية. والاختلاف داخل الجنسين البشري والحيواني (بين الذكر والأنثى) اختلاف فسيولوجي أي في الطبيعة أيضاً. وأعضاء المجتمعات يمارس كل منهم مهنة مختلفة. أما الاختلاف الفكري فقد أظهرت الأبحاث أن سببه عوامل الوراثة والبيئة. فالعقل الانساني يتطور في بنائه التركيبي ووظيفياً وسلوكياً باستمرار من خلال تأثيرات بيئية ووراثية معقدة تتفاعل باستمرار. وان كان ارجاع تطورات عقلية معينة لعوامل بعينها - جينية كانت أو بيئية - أمراً لم يتمكن أحد من تحديده. فالجينات ليست مسؤولة بصورة مباشرة عن السلوك ولكنها ما يُكوّن الخلايا التي تنتج السلوكيات عن تفاعله. وبالعكس، تحدث البيئة تغيرات في السلوك - بمعنى أنها تؤثر فيه - متى حدث تغير في بنية الذهن. كذلك أظهرت الأبحاث أن التغيرات في بنية الذهن ترجع في مناطق معينة في الذهن لعوامل وراثية وفي مناطق أخرى من الذهن لعوامل بيئية. المناطق في الذهن التي ترجع التغيرات فيها لعوامل وراثية هي تلك المناطق المسؤولة عن القدرات الذهنية والذكاء،

الهوامش

- ١ . أستاذ الفلسفة جامعة المنيا ونائب رئيس اللجنة الدولية لأخلاقيات البيولوجيا اليونسكو باريس
- ٢ . محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠، ص ١٢٧
- ٣ . بهاء درويش، الهوية أساس الوعي الفكري. مجلة الفكر المعاصر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد الحادي والعشرين، يناير- مارس ٢٠٢١، ص ٤٥-٥٢
- ٤ . محمد بيومي مهران، تاريخ العراق القديم، مرجع سابق، ص ١٤
- ٥ . المرجع السابق، ص ١٧
- ٦ . السابق، ص ٢٠
- ٧ . السابق ص ٣٦
- ٨ . السابق، ص ٤٣، ٤٤
- ٩ . السابق، ص ٦٨
- ١٠ . السابق، ص ٨٧
- ١١ . السابق، ص ١٠١
- ١٢ . السابق، ص ١٢٠
- ١٣ . السابق، ص ٢٣٥
- ١٤ . السابق، ص ٣٢٦
- ١٥ . السابق، ص ٣٥٧
- ١٦ . ثابت اسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية، مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٥، ص ٩٠
- ١٧ . المرجع السابق، ص ٩٠-٩٤

إن فهم واقعة أن الاختلاف هو أساس التعاون بين الأطراف يجب أن يكون أساس قيام كل أشكال التعاون^(١٩).

على هذا النحو لا يجب على الاختلاف أن يكون مبرراً للانقسام داخل المجتمع. فالاختلاف أمر طبيعي، أما ما ليس طبيعياً فهو محاولة فرض مذهب أو طائفة آراءها واعتقاداتها على الغير. حتى لو استطاعت إحدى الطوائف ذلك بالقوة، فلن يكون ما فرضته مقنعاً ولن يحقق استقراراً اجتماعياً لأن الخروج عنه سيظل أمراً ممكناً متى سنحت الفرصة لغير المقتنع أو لمن فرضت عليه هذه القناعات. فالاختلاف الذي يؤدي إلى الانشقاق مع الآخر قد يؤثر في الأنا لأنه سيؤثر في تماسك المجتمع. فتماسك المجتمع هو فقط ما يحقق الاستقرار الذي بدوره يخدم كل الأطراف.

ترسيخ الهوية الذاتية والوطنية

يبقى العمل على ترسيخ هذا الفهم بين أبناء المجتمع لخصائص الهوية الفردية والوطنية. هذا الفهم يجب أن يبدأ من الصغر ويتم التأكيد عليه من خلال كل منابر الثقافة بدءاً من الأسرة والإعلام والمدرسة ومراكز الشباب والمساجد والكنائس والأحزاب. دون هذا الترسخ لن يتحقق هذا الفهم ولن تحيا مجتمعات التنوع استقراراً يساعدها على تحقيق أهدافها. فالوعي بهذه المفاهيم ثم ترسيخ الثقافة بأهميتها وضرورة العمل وفقاً لها من شأنه أن يؤدي إلى تحقق التقدم في شكله الصحيح، تقدم يتأسس على « بناء الثقة وتعزيز الهوية الوطنية».

المراجع

١٨. ايناس سعدي عبدالله، تاريخ العراق الحديث ١٢٥٨ - ١٩١٨، بناية المكتبة البغدادية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤ ص ٥٩٢ - ٥٩٩
١٩. بهاء درويش، "الاختلاف سنة كونية تكتمل بالاتلاف: رؤية فلسفية" مجلة ميريت الثقافية العدد الثاني فبراير ٢٠١٩، ص ١٢٨ - ١٣٢ أعيد نشره في كتاب مقاربات في الفكر والفلسفة، دار الوفاء للطباعة والنشر الاسكندرية ٢٠٢١
- بهاء درويش، الاختلاف سنة كونية تكتمل بالاتلاف: رؤية فلسفية، مجلة ميريت الثقافية العدد الثاني فبراير ٢٠١٩، ص ١٢٨ - ١٣٢ أعيد نشره في كتاب مقاربات في الفكر والفلسفة، دار الوفاء للطباعة والنشر الاسكندرية ٢٠٢١
- ، الهوية أساس الوعي الفكري. مجلة الفكر المعاصر. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد الحادي والعشرين، يناير- مارس ٢٠٢١، ص ٤٥- ٥٢
- ثابت اسماعيل الراوي، العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والإدارية والاجتماعية، مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٥
- محمد بيومي مهرا، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠

The Role of Philosophy in building trust and Strengthening National Identity

Dr. Bahaa Darwish

Abstract

For nations to fulfil their mission of development, progress, and dignified living, cooperation and support are essential among their citizens. No member should view him/herself as anything other than a member of this system, whose goal is not limited to their own personal gain, but rather the common good. In achieving the common good lies his/her own interest, while self-centeredness and the pursuit of private interests harm the system to which they belong, and their common interest is not achieved.

Philosophy does not offer solutions for specific societies, but rather examines its topics as human issues of concern to everyone. The intellectual grasps this philosophical theoretical faculty and applies it to his/ her community or institution. The philosopher/intellectual is the one who can employ his/ her philosophical thought to solve the issues of his/ her society.

Since the mission of philosophy is to clarify concepts, work to instill and disseminate them among people, we will attempt here to clarify the meanings of “individual identity,” “national or societal identity,” their components, and “enhancing confidence,” through a philosophical clarification and theorization that serves to demonstrate how spreading awareness of the concept of individual identity and its constituent elements, and the concept of societal identity and its components, leads to building confidence and strengthening national identity.

Keywords/ Individual identity, national or societal identity, humanity, religion.